طب نفسى

مشكلة أسرة: الابن.. بين الجد والأب!

د. محمد شعلان

أكتوبر

أيها الحكيم.. اسمح لى بأن اناديك بهذا اللقب العرفى الأصيل بدلا من دكتور أو حتى طبيب، فأنا لم آت اليك لتكتب لى تطبيبا لألم أو تصف لى عقارا يخدرنى. ولكنى أتيت أبحث عمن يستمع إلى، ويشاركنى آلامى ويعينى بالحكمة على تحملها مشكلتى - أيها الحكيم - إننى شاب فى الخامسة والثلاثين، ولكنى أشعر كأنى عجوز رغم أنى لم أتزوج بعد.

إنها مشكلة أسرة تمتد إلى جيلين.. ومع ذلك فقد اتضح لى أنها مشكلة كل الأسر، أو قل هى مشكلة الأسرة الكبيرة، أو مشكلة أسرة المجتمع بأسره. ولذا دعنى أطرح عليك مشكلتى..

كان أبى سعيدا حينما يسر له أبوه - جدى - الزواج فى سن مبكرة. لقد أصبح رجلا بينما أغلبية زملائه مازالوا مراهقين. هم توابع فى بيوتهم بينما هو رب أسرة.. يعانون من المراهقة. وهو هانىء مستقر.

كانت حكمة جدى فى ذلك أن يجنب ابنه الذى ترسخت فيه القيم الدينية، مخاطر الانحراف. كما كان يريد له أن يكبر بسرعة ويتحمل معه المسئولية فى رعاية ممتلكاته وأسرته. وكانت وراء هذه الأسباب دوافع اخرى غير معلنة فقد كان جدى يخشى الموت. ويخشى إن هومات ألا يستمر بعد مماته فى صورة ذرية يتركها من بعده تحمل ملامحه ترث خصائصه.. لقد ماتت ابنته الكبرى فى ريعان شبابها قبل أن تتزوج وبالتالى لم يتأكد استمرارها من خلال ذريتها.. ولذلك كان متعجلا فى زواج ابنه قبل ان يموت هو الآخر.

ولم تكن هناك عوائق مادية واضحة.. كانت الحياة سهلة.. فقد كان المنزل الريفى واسعا ولم يكن غريبا عن التقاليد أن يتزوج الأبناء وهم فى بيوت الآباء.. فالبيت يتسع للجميع. بل كانت ميزة أن تجد الزوجة من معاونتها فى رعاية مولودها الجديد، وأن يشترك الجميع فى الأعمال المنزلية بدلا من أن يتحملها أحد بالذات.

وتولت الأسرة رعاية الحفيد الجديد - الذى هو أنا - بينما استمر الأب الجديد - الذى هو أبى - فى مشاركته مهام العمل مع أبيه الذى هو جدى.

...لكن أبى بدأ يتيقن، مع مرور الزمن أنه لم يحقق ذاته بما يكفى، وكان طموحا فأخذ يبحث عن مجال جديد يحقق فيه قدراته على العمل.. وترك القرية والأرض كما ترك مهمة رعاية اولاده - الأحفاد - لجدهم حتى يتحرر من هذا العبء ويكرس نفسه للعمل الجديد.

ذهب إلى المدينة تاجرا فى بادىء الأمر ثم مالكا لمصنع.. ثم لعدة مصانع ومع تفاعله مع المدينة اتسع أفقه وتفتح فكره. فهو يتعامل مع المادة التى تخضع لقوانين خاصة بها تحكمها وتجعل من الممكن التحكم فيها والتنبؤ بحركتها.. وأصبح كل شىء عنده يقيم بعائده المادى: الوقت والابتسامة والكرم بل البذخ.. وكل فعل لابد ان يكون محسوبا بما سوف يعود به عليه من مكسب.

واستمر جدى فى القرية يزرع البذرة وينتظر المياه التى سوف ترويها. ويدعو الله أن تنمو البذرة وأن يكتبها شر الآفات. إنه باختصار.. يتوكل على الله بعد أن يعقل الناقة. وهو فى ذلك يختلف عن أبى الذى كان يمسك بالناقة فى كل لحظة.. وكان جدى علاوة على ذلك يتقدم فى السن ويعد نفسه للموت ويريد أن يترك ذكرى طيبة وقدوة حسنة بعد رحيله. فقد أصبح كثير التعبد ممارسا للشعائر الدينية بمختلف صورها.

ولكنه من جانب آخر كان يشعر ان ما سوف يتركه لابنه من ارض.. لم يعد له قيمة.. فابنه - أبى - اصبح ناجحا بدون الحاجة إلى أرضه. وأصبح مستغنيا عن بيته، إنه يخشى أن يكون قد فقد ولاء أبى له ماديا وحضاريا.. ومع ذلك فهو يذكر دائما أنه صاحب الفضل فى تحريره من مسئولية تكوين الأسرة ورعاية الصغار.. وهو الأمر الذى يسر له هذا النجاح. ويعود إليه الأمل فى الاحتفاظ بولاء ذريته من خلال ولاء الحفيد له. فأبى بعد قليل لابد أن يواجه ضرورة الاستعانة بى - أنا الحفيد - لكى يحافظ هو الآخر على تركته سوف يحتاج إلى.. وعندئذ سوف يجدنى أجمل بدور الجد وملامحه وقيمه.

...وهكذا نشأ وضع غريب.. فأنا - الحفيد - أثور على الأب الذى تركنى لعمله وانشغل عنى، بينما الجد هو الذى استمر يداعبنى ويدللنى فى طفولتى ثم فى شبابى. والأب يثور - على الجد الذى كاد يخنقه برعايته المفرطة وكاد يسلبه قدراته على المبادرة والطموح لولا أنه خرج من كنفه وترك الأرض والقرية وذهب إلى التجارة والصناعة والمدينة. والجد العجوز الذى يشعر بالأيام تهزمه يبحث عن حليف فى مواجهة ثورة الأب عليه. فيتحالف مع الحفيد - كلانا يحيا فى المستقبل ويرفض الحاضر والأب منهمك فى الحاضر. الجد مالك الماضى، وفاقد الحاضر. ويبحث عن المجد فى المستقبل.. وأنا أسعى للتخلص من الماضى ولا أجد الحاضر فأواسى نفسى بالمستقبل.

وتأخذ معركة الأحباب فى هذه الأسرة أبعادا فكرية. فقيم المستقبل قيم روحية فى المقام الأول. وقيم الحاضر قيم مادية.. والجد يفعل الخير لأنه يريد أن يترك ذكرى طيبة وأنا أبحث عن الخير لأن الحرمان الذى أعانى منه فى حاضرى شر. والأب يعلم من خلال تعامله مع المادة أن لها قوانينها التى لا تخضع لقيم الخير والشر، وان النجاح فى المادة يستوجب قدرا من الواقعية التى قد تبدو أحيانا كأنها الانتهازية والنفعية والماكيافيلية.. مما قد يجعله فى تناطح مع أهل القيم والمبادىء.

..والجد يتعبد وينادى بفعل الخير، ويتنازل عن ممتلكاته بإرداته استعدادا لليوم الذى سوف يتنازل فيه عن كل ممتلكاته بما فيها جسده وهو يوم موته. وأنا بدورى.. وتعبيرا عن ولائى لجدى وثورتى ضد مادية أبى.. أنادى ايضا بالقيم الروحية والمبادىء. الجد ينادى من موقع استسلام.. وأنا أنادى من موقع التحدى.. الجد يتدروش والحفيد يتطرف. الجد ينادى بالزكاة وبالاحسان وإيتاء ذى القربى والمساكين.

وأنا أنادى بالعدالة والمشاركة .

وهنا يصحو الأب ويحاول إعادة النهائى إليه . إنه يشير إلى موضع الثراء عند الجد . . فثراء الجد واضح إذا قارناه بمن حوله من الفلاحين المعدمين . حيث كل مالك أرض لابد أن يكون محاطا بعدد كبير من المعدمين ، يزرعونها له ، بينما الأمر فى حالة التاجر والصانع مختلف قليلا . فهؤلاء يسكنون جنبا إلى جنب فى الأحياء الراقية بالمدينة والعمال والمعدمون يسكنون هناك حيث لا تراهم الأعين ، الأب ترى ولكنه بالمقارنة ليس اكثر ثراء ممن حوله من التجار وأصحاب المصانع .

ومن خلال تلك المقارنة علاوة على انتقال إلى المدينة لكى استكمل تعليمى فان الأب يحاول بل يستطيع ان يستميلنى إليه . فنحن متفقون على أنه لابد من العدالة وأن الثروة لمن يعمل . فالعدالة لا تعنى بالضرورة الغاء تاما للملكية . . ويستمر الأب قائلا : وهذا جدك العجوز لا يعمل بل يملك . بينما من حوله من فلاحين معدمين يعملون ولا يملكون شيئا .

وهنا أجدنى أصفق لأبى !

. . ولكن الجد العجوز لم يفقد حيويته تماما بعد . . إنه مازال يأمل فى استعادة ولائى . فيزورنى فى المدينة حيث يعينى على استئجار شقة مستقلة بعيدا عن أبى ويعدق علىّ بالمصاريف فى حدود إمكانياته التى انكمشت ، بينما أبى رجل الأعمال الذى تعلم قيمة القرش يفتر عل ويحاسبنى . إنه احيانا يصطحبنى لزيارة الأقارب الذين يسكنون فى الأحياء الشعبية . وعندئذ تتفتح عيناى على الوجه الآخر للمدينة . حيث ينضح فى فقر كل هؤلاء الذين يعيشون فى العشش والحوارى ويتبادلون الشكوى . ثم ينفق ابى مع غيره من الآباء على تكوين شركة كبيرة ويقومون بتوزيع انصبة فيما بينهم فى محاولة منهم للتكتل ضد الأفكار المستوردة . وهم على الأقل لو خسرت الشركة فإن الجميع سوف يتحملون الخسارة ، وإن كسبت فسوف ينال النصيب الأكبر فى المكسب ، ولا مانع من إرضاء عامل هنا أو هناك بمنصب أو مكافأة لإسكاتهم .

ويصفق الحفيد مرة أخرى وينتظر نصيبه من عائد الوضع الجديد دون جدوى . . فالجميع مطمئن إلى أنه لن يخسر ولن يفصل . فيقل حافز العمل من أجل زيادة الانتاج . فينخفض الربح علاوة على أن الشركات العالمية الكبيرة لم يعد يعجبها أن تنشأ هذه الشركة الكبيرة وتستغنى عن منتجاتها وتضع الحواجز الجمركية امامها .

أمام هذا المأزق يتراجع الأب ويعيد للجد اعتباره . فلم يعد هناك خطورة منه ولقد شاخ الآن . ولا ضير من أن تعود الملكية وتعود الخواطر وتزدهر الحالة . خاصة بعد أن زال حصار الشركات الكبرى . ولكن الأب أخطأ تقدير قوة الجد الذى لم يتوان عن هذه اللحظة من إعادة تحالفه مع الحفيد مرة أخرى . إلا أنه لم يعبأ وحشد قوته لوضعها فى مكانها . فالملكية تعود . ولكن ليس للأجداد بل للآباء . أما الأحفاد فعليهم الانتظار .

لقد تضخم أبى واصبح مثل جدى . فقد أصبح مالكا . قليل العمل كثير المكسب . ومثل كثير التكلام فى الدين والقيم ولكن دون تطبيق فى الواقع . والفرق انه . لكونه حديث الثراء فهو يخشى أن يفقد ثروته . ذلك أن الذى جاء حديثا وسريعا قد يزول قريبا وسريعا أيضا . إنه قد دفع ثمنا من التنازل عن مبادىء وقيم فى سبيل النجاح الذى حققه . فإذا ما اكتفى بما لديه وتوقف عن المزيد من الكسب فإن فى ذلك اعترافا ضمنيا أن ما فعله كان خطأ . وهو لا يتحمل مثل هذه المواجهة مع نفسه فيستمر فى فعل ما كان يفعله . أى المزيد من النجاح والكسب دون شبع أو توقف . وعلاوة على ذلك . فلأنه حديث الثراء فانه ايضا حديث الوعى بحالة الطموح والتطلع التى دفعته إلى هذا النجاح . وهى حالة تكاد تقترب من الطمع والجشع والنهم . وهو لعلمه بوجود هذه الحالة عند الآخرين الحرومين مما لديه والمتطلعين إليه . يخشى إن توقف لحظة عن الكسب فإن ذلك يعنى أن هناك آخر سيكسب ويتضخم وربما بهدده بالانهيار .

أما الفرق فى تشابه معنى انه يدين أولا . وأخيرا بفعله وممارسته إلى عبادة العجل الذهبى . فقد علمه النجاح أن السيد الأكبر هو المادة .

فى التطبيق هذا هو دينه . ولكنه لو اعلن ذلك فسوف يعطى المبرر لغيره للتطلع إلى ما يملك ومحاولة انتهابه هو الآخر ولذلك لابد له ان يتظاهر بغير ذلك . فهو الآن يتمسك بالشعائر الدينية الخارجية مثل الصلاة والصيام والحج والزكاة ويهرب من الضرائب بحجة أنه يدفع زكاة ويتمسك السبحة ويكثر من المسبحة . إنه يملك سلاح الدنيا ولا يريد ان يترك لنا الآخرة أيضا . وأمام هذا لا أجد أمامى الا المزايدة فى التدين . ولكن حينما أصل إلى نقطة التعارض معه فإنه يرفع سلاح المادة . ومهما كانت الروح قوية فإنى فى النهاية أريد أن احقق احتياجاتى المادية ، وجدى لم يعد يكفينى ولا أنا مكتفيا بذاتى . والدعاء وحده لن ييسر لى عملا أو زواجا .

صدقت حينما قلت إنها مشكلة أسرة بل مشكلة كل الأسر فى الأسرة الكبيرة مما يجعل الحل يتطلب إشراكهم جميعا . ولكن بما أنك الشاكى الذى يعانى فهذا هو المفتاح الذى تملكه لبداية الحل . فالذى يعانى هو صاحب المصلحة فى التغيير . والذى يشكو فى هو الذى أستطيع أن أقدم له المعونة .

ولعل هذا فلابد أن تتيقن أنك لست الوحيد الذى يشعر بالمعاناة . بل هناك أبوك وجدك وبقية الأسر فى المجتمع . كما أنك لست مجرد ضحية بريئة لأبيك . لست مجرد مفعولا به . ولكنك شريك فى المسئولية عما أنت فيه الآن . لقد قالها شكسبير على لسان كاسيوس فى مسرحية يوليوس قيصر . إنه لو لم نكن نحن خرافا لما صار قيصر ذئبا .

ولولا انك قد اخترت أن تكون ما انت عليه لما كان ابوك وجدك ما هما عليه . قد يبدو أنى أحملك مسئولية لم تكن تنتظرها . ولكن أول خطوة فى أى طريق أن تغير ما أنت عليه . . هى أن ترى أنك مسئول .

لقد كنت حتى وقت قريب تكتفى بأن تشاطر الأحزان والشكوى تارة مع الجد وتارة مع الزملاء . الا أنك مرة بعد مرة . وجدت أن هذا لا يؤدى إلا إلى المزيد من الاثارة لانفعالات الغضب والنقمة دون أن تفعل شيئا يغير من الواقع . لقد وصفت نفسك باليتم لأنك تبحث عن أب افتقدته . فقد أخبرك أبوك قبل أن يستكمل بناء شخصيته وقبل أن يعيش شبابه . فهو لم يكن مستعدا لدور الأبوة بعد . . ولما وجد أن جدك مستعدا للقيام عنه بذلك . وهذا يعنى تجميد دورة كأب . وجدها فرصة لكى يعود إلى دور الشاب . ورأح يؤكد هويته الجديدة فى مواجهة أبيه . فيرك الساحة وذهب يكتشف نفسه فى عمل جديد ومكان جديد . بينما بقيت أنت فى حماية جد حنون . وهذا الجد أكثر من حنانه املا فى ألا تكبر بعد ما فعله أبوك فتركه . أضف إلى ذلك أنك جددت له شبابه . فقد كان يرى نفسه فيك ومن جانب آخر فقد كنت تستمد منه القوة والحكمة . وكان ذلك يوفر عليك الدخول فى معركة الحياة ومحاولة اكتساب هذه القوة بسواعدك والحكمة بمعاناتك . الا أن استمرار مواجهتك الحديثة مع الواقع وعلاوة على شيخوخة جدك المتزايدة والشعور بالعجز المصاحب لذلك . جعلك تشكك فى عدالة توزيع القيم . كما جعلك تلتمس لأبيك بعض الحق . وعندما تستطيع أن ترى احتمال الحق فى الجانب الآخر واحتمال الخطأ فى جانبك . فهذه علامة طيبة فى طريق الاقتراب من نقطة الموضوعية التى تجعل التغيير ممكنا . . فالتغيير لا يأتى فى إلا حينما أرى أن هناك خطأ فى . لأنه مادمت ارانى على صواب دائما فليس هناك أمل فى التغيير . ان الذى تسعى إليه . اذن ، هو حوار مع أبيك بغية الوصول إلى نقطة لقاء .

فقد طال غيابك له . وبالتالى غيابك لتدرك كأب . الأمر الذى جعلك تشعر بالشيخوخة وأنت فى الخامسة والثلاثين من عمرك .

والحوار مؤداه أن تترجم مبادئك وقيمك الروحية إلى لغة الواقع . وذلك بالتعامل مع الواقع وتفهم قوانينه دون أن تتفرغها . إنك تعيش انفصاما بين فكرك وفعلك . تماما مثل أبيك . الفرق هو أنه يفعل – يعيش الواقع – بينما يستخدم الفكر تبريرة . بينما انت تعيش فكرك وتفكر فى واقعك دون أن تحيا فيه . ولعل الحوار والنقاء بينكما يحقق المرج المطلوب والمفيد للطرفين .

وماذا عن بقية الأسر . أسرة المجتمع الكبيرة ؟

إن الظاهرة ليست غريبة ولا جديدة . فالنظم حينما تستقر وتشيخ تطلب التجديد باستمالة الشباب الذى يعيد إليها حيويتها . ولعلك تذكر ثورات الشباب بصفة عامة فى العالم فى نهاية السبعينات . . لقد قام ماوتسى تونج بثورة الشباب الثقافية لأنه كان يخشى موته وموت الثورة التى صاحبها طيلة عمره والتى كان يراها تتحول تدريجا إلى نظام مستقر وهو ما كان داعما هدف ثورته ، أى أن يغير باستمرار ما هو مستقر حيث كان تضخم البيروقراطية واستقرارها تمانية الحصار الذى كاد يخنق ثورته . . ولذلك داوم على تغيير الوجوه فيها والخروج إلى القاعدة وإلى الشباب حيث الأمل فى تجديد الثورة . ولعل تطور الأحداث بعد وفاة ماو يعلمنا الحكمة التى تقول : إن المجتمعات وإن كانت تطلب التجديد والثورة المستمرة ، فإنها أيضا تطلب الاستقرار . ولعل الافراط فى تغليب جانب – فى حالة ماو : الإفراط فى تغليب جانب الثورة – ، يولد الحاجة إلى الجانب المضاد ، أى الاستقرار . وهو ما حدث بعد وفاته .

ولم نذهب بعيدا فإن مصر تمكنت من الاستمرار من خلال قدرتها على المحافظة على ذلك التوازن بين الاستقرار والاستمرار فى التغيير والتجديد . الجمع بين الأجداد والأحفاد من جانب والآباء من جانب آخر ولكن ما يقلقنى أن الأحفاد – الشباب – مازالوا ناعمى الأظافر ، ومازالوا يتمسكون بأجداد هرموا وشاخوا ، بينما فهم الآباء كبير .

ومازلت قلقا على هذه الزهرات الشابة التى تتطلع على السطح فتذبل أو تقطف قبل الأوان .

فأتمنى أن يكتسب الأب فى نضجه من حكمة الجد ما يجعله يرعى الزهرة وينميها . على كل فإن الزهرة بطبيعتها قصيرة العمر . المهم الثمرة التى تخلفها .